الفصل الأول

سيرة مختصرة

مولده ونشأته

بطرس باشا نيروز غالي من مواليد بلدة الميمون بمحافظة بنى سويف ١٢ مايو ١٨٤٦، أكبر أنجال غالي بك نيروز، الذي كان باشكاتبًا لدائرة مصطفى فاضل باشا شقيق الخديوى اسماعيل بمصر آنذاك.

تعليمه

التحق بطرس غالي في صغره بأحد الكتاتيب كغيره من المصريين حيث تعلم مبادئ القراءة والكتابة، ثم التحق بمدرسة حارة السقايين، فمدرسة الأقباط الكبرى التي كان يرعاها «الأنبا كيرلس الرابع» وكان صديقًا لوالده غالي بك نيروز والملقب عند الأقباط بأبي الإصلاح، فتلقى فيها بعض العلوم العربية ومبادئ اللغات الطليانية والإنجليزية والفرنسية، ونبغ بين أقرانه نبوغا لفت إليه الأنظار، وكان البطريق المشار إليه يتعهد المدارس بنفسه ويراقب سيرها فلاحظ منه ذكاءً واجتهادًا ممتازين، فتحدث فيما يرجوه من مستقبله.«كان يكفيه أن يقرأ ما يدرس له مرتين أو ثلاث مرات ليستظهره استظهارًا تامًا» [1]

قضى بطرس غالي في تلك المدرسة ثماني سنوات في تلقي علوم شتى، ثم انتقل إلى مدرسة البرنس مصطفى فاضل باشا، التي كانت تهتم بتدريس اللغات الأجنية وتعلّمها، فتعلم وأتقن فيها العديد من اللغات إلى جانب العربية مثل الإنجليزية والفرنسية والفارسية والتركية.

---

[1] تراجم مصرية وغربية د. محمد حسين هيكل.

وفي تلك السنوات ظهرت رغبته بالعلم وتلذذه بالدرس حتى إنه كان يقضي الليل ساهرًا لا يمل المطالعة لدرجة أن أحدهم – من يعرفونه ووالده – شكا ذلك إلى أبيه خوفًا على صحته من كثرة القراءة وانكبابه على الاطلاع بشكل ليس له مثيل. وقد ساعده عل إتقان اللغات التي تعلمها قوة ذاكرته، حتى بهر أساتذته بذكائه النادر.

وقد وصف "زكي مجاهد" صاحب كتاب "الأعلام الشرقية" بطرس غالي بقوله: "كان عالي الهمة، كبير المطامع، قوي الحافظة، شديد العارضة، وقد ارتقى إلى أسمى المناصب المصرية بجهده وقوة عقله، وكان يميل إلى المطالعة في ساعات الفراغ"، وقد جمع مكتبة كبيرة تشهد له بذلك.

بطرس والوظيفة:

كانت أمنيته العمل في السكة الحديد، وكانت من الهيئات الكبيرة في مصر في ذلك الوقت؛ ولذا نَظَم قصيدة في مدح رئيسها "عمر باشا لطفي"، فكان رده عليها «عندنا من هذا كثير» فخاب الرجاء وعاد بخفي حنين، وما لبث أن عُين مدرِّسًا بالمدرسة القبطية بالقاهرة، لكنه سافر بعد ذلك في بعثة إلى أوربا لتلقي تعليمه العالي هناك.

وعندما عاد بطرس من أوروبا عمل في الترجمة بالإسكندرية، في مجلس التجارة بشعبة الضرائب، ووضع كتابًا في المسائل المالية كان من أشهر الكتب في ذلك التخصص في تلك الفترة، وظل يُعمل به لفترة طويلة.

حياة غالي السياسية:

إن البداية الحقيقية لحياة غالي السياسية تعتبر مع بداية عودته من أوروبا وعمله في أوائل عام ١٨٧٦م مترجمًا في الاسكندرية في مجلس التجار بشعبة الضرائب، ثم باشكاتبا

للمجلس، وفي سنة ١٨٧٣ انتقل لنظارة الحقانية التي ترقى في سلكها سريعًا حتى أصبح سكرتيرًا لها في ١٨٧٩م، ثم وكيلًا في ١٠ اكتوبر ١٨٨١م.

ثم إسهامه في حركة علمنة القانون المصري والدور الذي قام به في تحضير القوانين المختلطة بالاعتماد علي القوانين الفرنسية والمشاركة مع قدري باشا في ترجمة تلك القوانين، ثم شارك في اللجنة التي تأسست في عام ١٨٨٤م برئاسة نوبار باشا وعضوية قناصل الدول في مصر لتعديل هذه القوانين.

ويظهر الدوراللامع لبطرس غالي في فترة ارتباك المالية في مصر ومساهمته في حل الأزمة كما يلي:

ارتباك مالية مصر:

ارتبكت مالية مصر في عامي ١٨٧٥ و١٨٧٦م تقريبًا، فتم عقد قومسيون للنظر في الأمر عام ١٨٧٦م فارتأى هذا القومسيون أن يشكل قومسيون مركبا من مندوبي عموم الدول لعمل تصفية لمالية الحكومة المصرية وتعيين بطرس غالي نائبا عنها وكان ذلك في عهد وزارة رياض باشا، فكان بطرس غالي موضع إعجاب القومسيون إذ أخذ يبذل مواهبه العقلية حتى أنقذ الحكومة المصرية وهي على وشك الإفلاس. وشُكِّل أيضا قومسيون لتعديل الضرائب تحت رئاسة رستم باشا، فكان بطرس غالي عضوًا فيه ووضع كتابه المعروف، الذي ظل يرجع اليه من وقت لآخر وقتا طويلا آنذاك.

بطرس غالي باشا
ناظر الداخلية في وزارة "نوبار باشا" ووزارة "رياض باشا"
(من في ١٧ جمادى الآخرة سنة ١٣١٠هـ (١٥ يناير ١٨٩٣ ميلادية)

ويقال أن السير "ريفرس" مندوب إنجلترا في ذلك العمل راى اقتدار بطرس غالي وقد تنبأ له فقال «إنك ستكون ناظرًا للمالية يومًا ما»، كما قال له هذا القول عمر باشا لطفي أيضًا.

ويروي لنا د.هيكل السبب في إختيار رياض باشا لبطرس غالي لوزارة المالية إذ يقول: «ذلك أنه لما انتهت الحكومة المصرية من إنشاء المحاكم المختلطة في سنة ١٨٧٥ كانت على أبواب الضائقة المالية التي جرتها إليها الاستدانة الفادحة منذ أول حكم إسماعيل باشا في سنة ١٨٦٣. ففي سنة ١٨٧٦ صدر القانون بتأليف صندوق الدين ويتعيين المراقبين الماليين، لكن هذا القانون لم يخفف من وطأة الديون شيئًا، ولم يرفع من الضغط على دافعي الضرائب وإرهاقهم بأقصى وسائل الإرهاق وأبعدها عن كل معاني الإنسانية، ثم استيلاء صندوق الدين على كل ما كان يحصّل، حتى اضطرت الحكومة إلى عدم دفع مرتبات الموظفين بما جعل أحد الإنجليز الموظفين فيها يومئذ يكتب في مذكراته أنه قضى يومين لم يدخل فمه فيهما طعام لإعوازه إلى كل ما يسد به رمقه. وإذ كان الدائنون الأجانب مع ذلك مصرّين على اقتضاء مصر كل تعهدات ولي نعمتها، فقد انتهوا إلى الاتفاق على تشكيل لجنة للفحص ثم لتصفية ديون مصر، وعين رياض باشا نائبًا عن الحكومة المصرية في اللجنة المذكورة وعين بطرس بك غالي السكرتير العام لنظارة الحقانية مساعدًا له، ثم عين رياض رئيسًا للجنة، وعهد إلى بطرس بالنيابة عن الحكومة، وفي ذلك الظرف الدقبق اضطر إلى أن يدرس من مباحث اللجنة ومن الشئون المالية ما مكنه من أن يضع تقريرًا عن نظام الضرائب في مصر.» (الكتاب الذي أشرنا إليه).

وكالة الحقانية:

وبعد الانقلاب الذي تم بخلع الخديوي اسماعيل باشا وتولية توفيق باشا عُيِّن بطرس غالي وكيلًا لنظارة الحقانية. ولما تشكلت وزارة شريف باشا في أثناء الثورة العرابية عهدت إليه سكرتارية مجلس النظّار مدة، ثم استقلّ بوكالة الحقانية.

وعندما قامت الثورة العرابية في مصر بقيادة "أحمد عرابي" كان بطرس من المنادين بمفاوضة الخديوي، ولذا اختير ضمن مجلس المفاوضة بعد هزيمة العرابيين في معركة التل الكبير للتفاوض مع الخديوي باسم العرابيين، وعقب حدوث الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ م وبناء على طلب مجلس النظار تحت رئاسة البارودي باشا أنعم على بطرس غالي برتبة المير ميران (الباشوية) وهو أول من حازها من الأقباط.

ومن الخدم التي يذكرونها له في أثناء الثورة العرابية أن العرابين بعد أن فروا من التل الكبير وأتوا إلى القاهرة عقدوا مجلسا للمفاوضة في ماذا يفعلون، ودعوا إليهم كبار الرجال من الأمراء العسكريين والملكيين وشاوروهم فيما ينبغي عمله، فكان رأي بطرس غالي التسليم للخديوي إذا أراد عرابي أن يعمل خط نار لمنع دخول الإنجليز في مصر، وقال له بطرس غالي: إن الأوفق أن تجعل تاريخك ناصع البياض ولا تشوبه بمداد السواد. وبناء على ذلك قبل المجلس الحربي وعرابي ما أبداه بطرس وعهد إليه ومحمد رؤوف باشا وعلي الروبي تقديم عريضة إلى أولى الشأن في الإسكندرية نائبين عن العرابيين.

بداية صعود نجم "بطرس غالي":

وقد صعد نجم بطرس غالي سريعا؛ ففي عام (١٣١٠ هـ= ١٨٩٣م) تولى وزارة المالية إبان بداية عهد الخديوي "عباس حلمي الثاني" في وزارة رياض باشا التي استمرت نحو عام، ثم لم يلبث أن أصبح وزيرا للخارجية في الوزارة الثالثة التي شكلها "مصطفى فهمي باشا"، استمر في وزارة الخارجية ثلاثة عشر عاما من (٥ من صفر ١٣٠٣هـ حتى ١٧ من

شوال ١٣٢٦ هـ= ١٢ نوفمبر ١٨٨٥م حتى ١١ نوفمبر ١٩٠٨م) وهي أطول فترة يشغلها وزير في هذا المنصب الكبير،حتي سقطت الوزارة الفهمية فوقع موقع الاختيار على تشكيل وزارة جديدة فشكلها في ١٠ نوفمبر سنة ١٩٠٨ وتولى رئاستها مع وزارة الخارجية وهو أكبر منصب يرجوه ابن النيل.

بطرس ورئاسة الوزارة المصرية ومبدأ المهادنة والسياسة.

واشتهر بطرس بذكائه ودهائه الشديدين، لذا رأى البعض أن تعيين بطرس جاء متماشيًا مع سياسة المهادنة التي كان يرغب الخديوي عباس في اتباعها مع الإنجليز، حيث إن بطرس كان على علاقة جيدة مع كل من الإنجليز والخديوي على حد سواء من دون أن يتخلى عن مصريته التي دائما ما اعتزّ بها واحترمها.

بطرس باشا غالي رئيسًا للوزارة:

وعندما سقطت وزارة "مصطفى فهمي باشا" أسند الخديوي "عباس حلمي الثاني" رئاسة الوزارة إلى بطرس غالي، واستمرت هذه الوزارة منذ تشكيلها في (١٩ من شوال ١٣٢٦ هـ - ١٣ نوفمبر ١٩٠٨م) حتى اغتيال بطرس في(١١ من صفر ١٣٢٨ هـــ -٢٠ فبراير ١٩١٠م).

عندما عهد الخديو عباس حلمى الثاني لبطرس باشا غالي برئاسة النظارة في ١٢ نوفمبر ١٩٠٨، نوقش في كونه قبطيًا وهذا قد يثير اعتراض المسلمين، فأجاب الخديوي على الفور بأن مصر شهدت نوبار باشا رئيسًا للوزارة وقد كان مسيحيًا وأجنبيًا، أما بطرس غالي فهو على الأقل مصري.

وكان تعيين بطرس غالي في رئاسة الوزارة المصرية بطلب من المعتمد السامي البريطاني في القاهرة "جورست" وبموافقة الخديوي عباس حلمي الثاني، ولذا سميت هذه الوزارة عند المصريين في تلك الفترة بوزارة «الوفاق»، أي التوافق بين كل من الاحتلال الإنجليزي وعباس حلمي، وأكد الخديوي عباس لجورست أن بطرس غالي مصري قبل أن يكون قبطيًا، عندما تساءل جورست عن موقف المصريين في سابقة تعيين رئيس وزراء قبطي لمصر.

وقد أخطأ الكثير في تفسير ملابسات وظروف تلك الفترة وخاصة الحياة السياسية لبطرس غالي إبان توليه منصب رئيس الوزراء إمّا لجهلهم بالتاريخ أو كون ذلك لظروف وأياد خفية أرادت ذلك بالفعل مما جعل بعض مؤرخي تلك الفترة يرى أن تعيين بطرس غالي في هذا الوقت في رئاسة الوزراء كان مقصودا لضرب الحركة الوطنية المصرية التي اشتد ساعدها وبدأت تطالب بالاستقلال وزوال الاحتلال، ولذا فكر الإنجليز في زرع الشقاق بين عنصري الأمة من الأقباط والمسلمين لإدخال الحركة الوطنية في معارك جانبية بعيدًا عن معركة الاستقلال والتحرر، فنجم عن ذلك الفهم الخاطئ التحامل الشديد على هذا المصري فترة حياته فأثمرت عن أول عملية اغتيال فريدة من نوعها في تاريخ مصر الحديث تجرعها بمرارة الأسى، وتجرعتها معه العقول الرشيدة فأبكت القلوب ونعته بدماء القلوب تحفر مجراها أبد الدهر. ومن ذلك قصيدة سليمان بن إبراهيم الصولة[1] التي قال فيها:

رجلٌ وحسُبك إنهُ الرجل الذي ... نجت البلادُ به من الإقلالِ
أحيا الندى وأمات بالكمد العدى ... ونفي الصَّدى بسماحهِ الهطّالِ
تبدو الغيوبُ لدى لواحظ حذقهِ ... غررًا مجرّدةً من الإشكالِ

(1) سليمان بن إبراهيم الصوله الرومي الملكي الكاثوليكي. كان مولده في دمشق سنة وقد ألف كتاباً سماه حصن الوجود في عقائد اليهود وتآليف أخرى راحت حرقاً أو غرقاً في حوادث سنة ١٨٦٠. وتقلد سليمان الصوله المناصب في الدواوين المصرية وصحب إبراهيم باشا لما جاء لفتح الشام ثم استقر بعد ذلك في دمشق وتقدم في خدمة الدولة العليَّة وتقرب من الأمير عبد القادر الجزائري وبفضله نجا من الموت في فتنة السنة ١٨٦٠ المشؤومة. ولما كانت السنة ١٨٨٤ عاد إلى مصر وفيها أقام إلى وفاته في ١٤ أيار سنة ١٨٩٩ عن ٨٥ سنة. وله ديوان واسع في ٣٨٢ صفحة طبعه في مصر سنة ١٨٩٤.

وتنـــاولـــت منـــهُ المجالس حكمـــةً ســـادت علـــى الماضـــي بهـــا والتالـــــي
نظـــر العـزيـــزُ بـــهِ فطـــافـةَ يـــوسفٍ فـــأحلـــهُ منـــــه المحـــلَّ العالـــــي
وأمَّـــــدهُ بـــالـرتبـــة العظمـى التـــي مـــا نـالهـا قَيْـــلٌ مـــن الأقيـــــالِ
فـــأفـــاد مجـد القبـط مجـدًا ثانيًـــا مـــترّفعًـــا لثبيـــــرهِ المتعـــالـــــي
والناسُ حـــول نـــدى يمينه أرَّخـــت نيـــلُ الهنـــاء يمـــينُ بطـــرس غالـــي

وأحداث توالت في مؤتمرين كبيرين عقدا بعد اغتيال بطرس باشا غالي بقليل؛ وهما "المؤتمر القبطي" الذي عقده الأقباط، و"مؤتمر مصر الجديدة" الذي عقده المسلمون ردًا على المؤتمر القبطي السابق.

وليس هذا فحسب؛ بل العديد من الأحداث التي توالت وكثرت شراراتها وكادت أن تلقي بالوحدة الوطنية المصرية في دوامتي الصراع والتطرف إلى نتائجَ لا تُحمد عقباها، لولا أن تدارك كل هذا من تجاه العقلاء من أبناء الأمة وزعمائها المخلصين الغيورين على وحدة وأمن هذا البلد الأمين، فكان ما كان من تسكين الاحتكاكات فبرد الشرر وخمد قبل أن يظهر له الدخان.

إن الذي مر من صفحات سابقة كان ملخصًا وجيزا لحياة شخصية كان لها عظيم الأثر في تاريخ مصر السياسي فترة حياته وبعد وفاته؛ فترة حياته لتوليه مناصب سياسية في غاية الحساسية في فترة لا تقل عن هذا وصفًا، وبعد وفاته – وبأدق بعد اغتياله – تاركًا قضية كادت أن تتحكم بمصير أمة بأسرها فتضيع.

فكيف السبيل إلى تفهم الحقيقة من دون دراسة كُنه الحياة الاجتماعية والسياسية بتلك الفترة التاريخية بنظرة حيادية يكفيها نقل الواقع المعاش آنذاك، من دون حيد أو زيف ؟!

بالطبع أنا لم ولن أعش الماضي آنذاك فأرصده وأنقله كما أريد بكل مصداقية، ولكن يستطيع كل منا الآن أن يحيا الماضي بعقله ووجدانه كما يريد من خلال ما توفر من مصادر

دوّنت عبر أشخاص عاصروه بعد انتقاء الثقات منهم واتّباعهم. فعلى غرار ما تقدم آنفا يتضح منهجي في انتقاء الأشخاص الذين أحيا معهم الماضي وأرصد الحقائق، تاركًا الزيف لأهله ومريديه، فكان المؤرخ «أحمد حسين»[1] الذي كتب «موسوعة تاريخ مصر» أفضل صديق أسافر معه عبر الزمان على صفحات موسوعته فائقة الروعة والمصداقية – من وجهة نظري – لأدوّن بعون من الله ثم منه جانبًا ليس بالقليل من تلك الفترة، عسى أن يُجزى من الله بهذا خير الجزاء.

إن أولى وأهم الفترات المُستحقة للبحث والدراسة حول قضيتي الاغتيال لبطرس غالي وما بعدها من قضية النزاع والشدّ السياسي والاجتماعي هي فترة تولي رئاسة الوزراء؛ باعتبار أن هذه الفترة هي البداية الحقة في تفهم وتفسير الملابسات الغامضة على الكثيرين حتى الآن، وإنزال الناس منازلهم وبيان القيمة العدل لهم.

نستعرض سويًا هذه الفترة بكل حيادية وانصاف على نهج مصداقية صاحب الموسوعة[2]، متفحصين العوامل والضغوط الخفية وراء التصرفات المغلفة لدى الأكثرية حتى الآن بهالة من الغموض أو الجهل أو القصد المتواري.

---

(1). ولد أحمد حسين في ٨ ربيع الأول ١٣٢٩هـ الموافق ٨ مارس ١٩١١ بحي "السيدة زينب" بالقاهرة، وتلقى تعليمه الابتدائي في "مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية"، ثم انتقل منها إلى مدرسة "محمد علي الأميرية".
كان الحس الإسلامي موجودا عنده منذ الصغر، ففي دراسته الباكرة ألف مع صديقه "فتحي رضوان" -الذي أصبح أحد كبار الصحفيين والكتاب المصريين- جمعية مدرسية سميت بـ"جمعية نصر الدين الإسلامي"، والتي استمرت فترة قصيرة، لكنها توقفت بسبب ضغوط ناظر المدرسة آنذاك.
وعندما بدأت المرحلة الثانوية كان أحمد حسين في مدرسة الخديوية الثانوية، وازداد اهتمامه بالمسرح والتمثيل، ونمت عنده موهبة الخطابة، ونما عنده الحس الوطني، وقد أنهى دراسته الثانوية في (١٣٤٧هـ= ١٩٢٨م)، ثم التحق بكلية الحقوق، وفي أثناء دراسته ازداد شغفه بالسياسة، وبدأ في ممارستها عمليا، وكان من أبرز مشروعاته وأفكاره "مشروع القرش".
وفي (جمادى الآخرة ١٣٥٢هـ=أكتوبر١٩٣٣م) تشكلت جمعية "مصر الفتاة"، وأعلنت رسميا تحت رئاسته. وفي (١٦ من شوال ١٣٥٥هـ=٣١ من ديسمبر ١٩٣٦م) تحولت جمعية مصر الفتاة إلى حزب سياسي، وبعد سلسلة طويلة من الحبس والاعتقالات إنتقل إلى منفاه الاختياري في سوريا، ثم لبنان، ثم لندن، ثم السودان، ولم يكف خلال هذا التجوال عن إرسال البرقيات إلى الرئيس جمال عبد الناصر-الذي كان عضوا سابقا في حزب مصر الفتاة- يطالبه فيها بالديمقراطية، ويحذره من الاستبداد والديكتاتورية.
وفي عام (١٣٧٦هـ=١٩٥٦م) طلب أحمد حسين العودة إلى مصر على أن يعتزل العمل السياسي، واستجيب لطلبه، فعمل بالمحاماة فترة، ثم اعتزلها عام (١٣٨٠هـ=١٩٦٠م)، وتفرغ للكتابة، وأصدر مجموعة من المؤلفات منها: "موسوعة تاريخ مصر" في خمسة أجزاء، وعدد صفحاتها (١٥٠٠) صفحة، وإيماني، والأرض الطيبة، وفي الإيمان والإسلام، ووراء القضبان، ورسالة إلى هتلر، وحكومة الوفد، واحترقت القاهرة، والاشتراكية، ثم اتجه إلى تفسير القرآن الكريم لكنه لم يكمله.
وتوفي أحمد حسين في ١٧ ذو الحجة ١٤٠٣هـ الموافق ٢٦ سبتمبر ١٩٨٢

(2) موسوعة تاريخ مصر لـ"احمد حسين". الناشر القاهرة، طبعة دار الشعب (١٩٧٣- ١٩٧٨)